اللغة كميدان للمجابهة الرسالية مع الحرب الناعمة، "الغزو الثقافي"

بلال حسن التل

الكلمات المفتاحيّة: بلال التل، اللغة، الغزو الثقافي، الحرب الناعمة، العامية والفصحى، المستشرقون، المستغربون، اللغة العربية.

المقدمة

اللغة العربية هي ميدان مجابهة رسالية مفتوحة منذ قرون من الغزو الثقافي، الذي استهدف أمتنا، والذي حمل لواء كبره المستشرقون والمبشرون، عندما سعوا بكل ما أوتوا من قوة إلى تهميش اللغة العربية بطرق ووسائل عدة، أبرزها: الدعوة للعامية بذريعة أن اللغة العربية عاجزة قاصرة جامدة.

من أوائل هؤلاء: الألماني "وليم سبيتا" الذي كان مديرًا لدار الكتب المصرية في القرن التاسع عشر، وقد صرف جهده لوضع قواعد للعامية المصرية، معتبرًا أن اللغة العربية الفصيحة لغة دخيلة على مصر جاءت مع الفتح الاسلامي، فألف كتاب **قواعد اللغة العامية في مصر** وطالب بأن تكون العامية لغة الأدب والعلم والفن.

ومثله وضع القاضي الإنجليزي "ولمر"، الذي كان أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية في مصر في العام 1902 كتابًا أسماه **اللهجة العامية في مصر** جدد فيه الدعوة لاستخدام العامية، التي وضع لها في كتابه قواعد، ودعا إلى جعلها لغة العلم والأدب، وزاد على ذلك بأن دعا إلى كتابتها بالحرف اللاتيني، مبشرًا بأن الإنجليزية ستسيطر على مصر.

أما "وليم ويلكوكس"، وهو مهندس ري تولى عام 1883 رئاسة تحرير مجلة **الأزهر**، فقد زعم أن العربية الفصحى عاجزة عن مواكبة العصر، وأن سبب تأخر المصريين هو عدم استعمال العامية، لأن الفصحى أعاقتهم عن الابتكار والاختراع. وهذه المزاعم هي التي ما زالت شرائح من المحسوبين على أمتنا ترتكز عليها في موقفها المعادي للغة العربية، خاصة في ميدان التعليم الجامعي في واحدة من أهم نتائج الغزو الثقافي الذي كانت اللغة وما زالت أهم ميادينه.

المستغربون على درب المستشرقين

كثرت الدعوة للعامية في كتابات الغربيين، وقد اتفق هؤلاء على الدعوة لجعل العامية لغة العلوم والآداب والفنون. وعلى درب هؤلاء سار بعض المستغربين. فتبنت جريدة المقتطف المعروفة بارتباطها بالدوائر الاستعمارية الدعوة

لاستخدام العامية منذ عام 1881، حيث اقترحت كتابة العلوم باللهجة المحلية، ودعت المفكرين إلى مناقشة هذا الاقتراح. وبرز "سلامة موسى" المتوفى عام 1953 في مجال معاداة اللغة العربية، فتبنى اقتراح "ويلكوكس" القاضي بأن تكون هناك لغة مصرية للكتابة والتأليف قائلًا: "إن اللغة العربية لغة بدوية، وإنها لغة رجعية متخلفة"، ومثله كان أحمد لطفي السيد الذي تساهل في قبول المسميات الأجنبية بذريعة أن اللغة العربية فقيرة، وأن العامية ستخرجها من جمودها، ومثلهما كان مارون غصن المتوفى سنة 1940، ويعقوب سنوا، الذي صار يعقوب صنوع المتوفى عام 1912. وكذلك رفاعة الطهطاوي، الذي دعا بعد عودته من فرنسا إلى استعمال اللغة العامية وتأليف الكتب بها، ومثله الكاتب المصري الدكتور لويس عوض.

وفي لبنان، حمل وزر هذه الدعوة سعيد عقل، الذي دعا إلى استخدام اللغة العامية، وكتابتها بالحروف اللاتينية قائلًا: "من أراد لغة القرآن فليذهب إلى أرض القرآن". ومن أبرز دعاة العامية في لبنان أيضًا أنيس فريحة أستاذ اللغة العربية في الجامعة الأمريكية.

وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي أبداها كتّاب ومفكّرو الأمة في التصدي لدعاة العامية، فإن هؤلاء واصلوا جهودهم في حربهم على اللغة الفصحى بالكتابة والخطابة وعقد المؤتمرات، التي من أشهرها مؤتمر برمانا في لبنان، الذي عقد عام 1973 بمشاركة العديد من أساتذة الجامعات في أمريكا وأوروبا والبلاد العربية، والذي ناقش اقتراحًا فرنسيًا بإيجاد لغة عربية جديدة تكون مفرداتها هي المفردات الأكثر تداولًا بين الناطقين بالضاد. أي استعمال اللهجات العامية الدارجة، وذلك بحجة أن الاستعمال هو السيد الذي يفرض نفسه.

الحرف اللاتيني بدلًا من الحرف العربي

وبالتوازي مع الدعوة للعامية التي حمل المستشرقون والمبشرون لواءَها في حربهم المعلنة على اللغة العربية، حمل هؤلاء أيضًا لواء الدعوة لإحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي، بحجة أن اللغة العربية هي سبب التخلف العلمي للعرب، وبزعم أن الحرف اللاتيني أسهل في التعلم والتعليم، وبحجة أن الفصحى انتهى دورها، ومثلما سار على درب المستشرقين في دعوتهم للعامية بعض المستغربين، كذلك هي الحال في الدعوة لاستخدام الحرف اللاتيني محل الحرف العربي، من ذلك: الاقتراح الذي قدمه عبد العزيز فهمي عضو المجمع العلمي المصري سنة 1943 إلى المجمع لاستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وشغل المجمع ببحث اقتراحه ثلاث سنوات حتى خصص المجمع جائزة مالية لمن يتقدم بأحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية.

لقد تجاهل القائلون بعجز اللغة العربية عن استيعاب العلوم، أنها كانت لغة العلم والمعرفة والحضارة، وأن تعلمها كان سببًا رئيسًا من أسباب النهضة الغربية، وأن التجارب دلت على أن استخدام الحرف اللاتيني لا يقود للنهضة، والأمثلة على ذلك كثيرة أبرزها التجربة التركية، حيث كان دعاة استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني يستهدون بالتجربة الأتاتوركية في تركيا، بالرغم من أن هذه التجربة لم تحقق لتركيا وبعد عقود طويلة من استخدام الحرف اللاتيني بدلًا من الحرف العربي، أي تقدم علمي، على العكس من ذلك، فإن النهضة التركية التي حدثت خلال العقد الأخير ارتبطت ارتباطًا مباشرًا بعودة تركيا إلى حضن الاسلام وثقافته، مما يؤكد أن إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي ليس سبيلًا للنهوض العلمي، وأن هذا الاستبدال الذي تم في تركيا كانت تكمن خلفه عداوة للإسلام والمسلمين، والزعم بأن جذور تركيا آشورية وبابلية، ولا علاقة لها بالجذور الحضارية الإسلامية، لذلك ترافق إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي في تركيا بسلسلة إجراءات لطمس الهوية الإسلامية لتركيا، مثل تغيير الزي الدارج، حيث صار لبس الطربوش تهمة يحاكم صاحبها، وكذلك منع الحجاب، تطبيق القانون المدني السويسري، بعد أن تم إبطال قانون الأحوال الشخصية، وغير ذلك من مظاهر الحياة الإسلامية في تركيا.مما يدل على أن للغة علاقة وثيقة بالثقافة التي تنعكس ممارسةً وسلوكًا.

من النظرية إلى التطبيق

لقد تعددت أساليب وأشكال الهجوم على اللغة العربية والدعوة المتكررة لتهميشها، مثل الهجوم على قواعدها – صرفًا ونحوًا–بحجة الدعوة لإصلاح هذه القواعد. ومثل الدعوة إلى تنشيط ما يُعرف بالأدب الشعبي على حساب الأدب العربي باللغة الفصحى، ولم يتوقف الهجوم على اللغة العربية عند حدود الدعوة النظرية، بل تعداها إلى الجانب العملي التطبيقي، وفي هذا المجال تبرز جهود المندوب السامي البريطاني على مصر اللورد "كرومر" الذي ما زالت أفعاله المعادية للغة العربية تفعل فعلها في حياتنا الثقافية والتعليمية، فقد عرف هذا المستعمر بعدائه الشديد للإسلام واللغة العربية، وبجهوده المستمرة والمكثفة لحربهما، وهي الجهود التي لخصها في كتابه **مصر الحديثة**، الجزء الأول، الصادر في العام 1905، بما يلي: "إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على هذا البلد (مصر) هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس، ولكن كان من الواجب، ومنعًا لإثارة الشكوك ألا يُعمل على تنصير المسلمين، وأن تراعى

المظاهر الزائفة للإسلام، كالاحتفالات الدينية، وما شابه ذلك"[1]. لذلك رد كرومر على شكوى المبشرين منه بسبب تضييقه عليهم بقوله: "أنتم تخطفون الأطفال من الشوارع لتُنصروهم، وهذا يؤدي إلى إثارة الناس، ولكنني اتفقت مع شاب خريج كلية اللاهوت البريطاني لكي يضع منهجًا تعليميًا يؤدي إلى جميع أهدافكم". وقد كان هذا الشاب هو القس دوغلاس دانلوب، الذي عين مستشارًا لوزارة المعارف المصرية، لكنه كان يقبض على كل كبيرة وصغيرة فيها، وقد وضع هذا القس خطة طبقها لتحقيق أهداف الرجل الأبيض التي أشار إليها سيده كرومر، والتي أشرنا إليها آنفًا، ويعنينا لغايات هذا البحث ما يتعلق منها باللغة العربية، ففي إطار سعيه لتغريب التعليم وإقصاء الإسلام عن برامج التعليم، ركز دوغلاس دانلوب على محاربة اللغة العربية، فهمش تعليمها وقلص عدد حصصها والفترة المخصصة لها، وهي ذاتها السياسة المتبعة حتى الآن في مدارسنا، مما يبين أثر الغزو الثقافي فينا، والأثر الذي يضعف علاقة الطلاب بلغتنا العربية، ومن ثم يقلل من درجة اتقانهم لها، وفي المقابل عمل دوغلاس على إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية، وفي سبيل ذلك كان يحضر في كل عام مجموعات من الإنجليز تكون مهمتهم بث الكراهية للغة العربية. وقد كان دوغلاس يحتقر معلمي اللغة العربية ويعطيهم أدنى الرواتب، فقد كان راتب مدرس اللغة العربية أربعة جنيهات، هي ثلث راتب سائر المعلمين، بهدف تحقير المكانة الاجتماعية لمدرس اللغة العربية، في نفس الوقت الذي أحاط به معلم اللغة الإنجليزية بعناية خاصة، ووضعه بمكانة مميزة، فتغيرت نظرة المجتمع إلى معلم اللغة العربية، وصار محط سخرية، خاصة في وسائل الفن المختلفة، مما انعكس ازدراءً للغة العربية، بدأت معه تشيع اللغة الإنجليزية وصار الأهل يشكون من صعوبة اللغة العربية، وهو الأمر الذي ما زال قائمًا إلى يوم الناس هذا، في دليل عملي على أثر الغزو الثقافي على العامة، وهو أثر يفوق بسلبيته أثر الغزو العسكري الذي ينتهي بانتهاء الوجود العسكري للمحتل، فيما يستمر أثر الغزو الثقافي لعقود طويلة يستمرئ خلالها أبناء الأمة تبعيتهم لمستعمرهم على قاعدة "ولع المغلوب بتقليد الغالب"، وأول ذلك استمراء لغته وحرصه على تعلمها وتعليمها لأبنائه، كما يحدث في بلادنا حتى الآن بفعل الغزو الثقافي الذي شنه أمثال دوغلاس دانلوب على لغتنا العربية، وما زلنا نواصله بأيدينا.

ركز المستشرقون وغلاة المستعربين هجومهم على اللغة العربية، خاصةً في مجال التعليم في إطار السعي للقضاء على طموحات الفكر العربي الإسلامي، وتمزيق وحدة العالم الإسلامي، ومقاومة الثقافة والقيم والمفاهيم الإسلامية، لذلك عمل كرومر على تحويل التعليم في الجامعة المصرية من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية عام

---

[1] برنامج الإرشاد الطلابي في مصر.

1903 لتتبعها في ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت. ومنذ ذلك الحين، صار التعليم الجامعي في كل الجامعات العربية باستثناء الجامعات السورية بغير اللغة العربية، مما كرس التخلف وعدم إحداث أية نهضة علمية، فقد بينت الدراسات والبحوث أن توطين العلوم والمعارف باللغة الأصلية للبلاد من أهم أسباب نهضتها العلمية والصناعية والاقتصادية، خاصه وأن استيعاب الطلبة للمواد العلمية بلغتهم الأصلية يكون أضعاف استيعابهم باللغة الأجنبية.

ومثل الدراسات والبحوث، فإن التجربة العملية للشعوب عبر التاريخ تؤكد أن توطين العلوم والمعارف باللغة الأصلية للبلاد هو سبيلها للنهوض، فعندما ترجم المسلمون علوم الأولين كانت الحضارة الإسلامية. وعندما ترجم الأوروبيون عن المسلمين علومهم إلى لغاتهم الأصلية حدثت النهضة الغربية التي ما زالت مستمرة حتى الآن.

أسباب الهجوم على اللغة العربية

لقد أدرك مهندسو غزو بلادنا عسكريًا وثقافيًّا أهمّية اللغة العربية، فسعوا إلى تهميشها، بل واستبدالها بلغة اخرى لأسباب كثيرة، في طليعتها أن اللغة هي المصدر الأساس لثقافة الانسان، ومن ثم لمنظومة قيمه وولاءاته، فالإنسان يثقف باللغة التي يقرأ بها ويستمع بها ويتحدث بها، واللغة أيضًا هي أداة التفكير، وهي التي تحدد نمط تفكير الإنسان. فالإنسان يفكر باللغة التي يتحدث بها، فإذا اختلفت علاقته باللغة اختل تفكيره، ومن ثم اختلت قراراته وخياراته، ولعل هذا يفسر لنا سوء الكثير من القرارات الصادرة في عالمنا العربي، وعدم ملاءمتها لمحيطها، ذلك أن متخذي هذه القرارات لا يفكرون بلغة هذا المحيط، لأنهم تربوا على لغة غير لغتنا العربية، فعجزت مداركهم عن فهم نفسية شعوبهم وذائقه هذه الشعوب التي تغذيها اللغة العربية.

كثيرة هي الأهداف التي يحققها الغزو الثقافي من هجمته على اللغة العربية، أولها السعي لإلحاق الأمة بركب الغزاة، ومن ثم إذابتها بهؤلاء الغزاة، فاللغة من أهم مكونات السيادة والاستقلال والتميز، فقد أكد علماء السياسة والاجتماع على أن اللغة مكون رئيس من مكونات السيادة والاستقلال، وأن مكانة الأمة بين الأمم تقاس بمكانة لغتها، وهو ما أشار إليه مؤسس علم الاجتماع ابن خلدون عندما قال في مقدمته: "إن غلبة اللغة بغلبة أهلها وإن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم". وهو ما أشار إليه الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي عندما قال: "ما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار. ومن هنا يفرض الاجنبي المستعمر لغته فرضًاعلى الأمة ويركبها بها ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثة في عمل واحد: أما الأولى فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا، وأما الثاني فالحكم على ما فيهم بالقتل محوًا ونسيًا، وأما الثالث فتقيد مستقبلهم في الأغلال يضعها، فأمرهم لأمره تبع"؛ بل لقد ذهب

المفكرون إلى أن اللغة هي الصفة الثابتة للأمة، والتي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها.. وبسبب هذا الدور الذي تلعبه اللغة في تثبيت هوية الأمم والأوطان ينصرف المحتل إلى إبعاد الشعوب عن لغتها؛ رأينا ذلك في الجزائر وغيرها في القرن الماضي، ونلمسه الآن في فلسطين المحتلة، حيث يسعى العدو إلى تهويد معالم فلسطين وطمس لغتها العربية في الوقت الذي أحيا فيه اللغة العبرية بعد أن كانت لغة منسية. لذلك، فإن الشعوب الحية ترفض المساومة على لغتها أو إضعاف هذه اللغة، فقد وافق اليابانيون على كل شروط الاستسلام في الحرب العالمية إلا الشرط المتعلق باللغة اليابانية. وطيلة حرب تحرير فيتنام ظل القائد هوشي منه يردد لشعبه قوله:"لا انتصار لنا على العدو إلا بالعودة إلى ثقافتنا القومية ولغتنا الأم".

وربطًا بالسيادة والاستقلال، فإن اللغة من أهم مكونات وحدة الشعب والأمة، ذلك أن الشعب ليس مجموعة من الناس تعيش في بقعة واحدة فقط، بل هو وحدة الشعور والسلوك والإرادة.. وهي الوحدة التي لا تبنيها إلا اللغة التي تنقل المشاعر والأحاسيس وتجسد الإرادة، لذلك فإن اللغة هي أساس وحدة الشعب والأمة، خاصة الأمة العربية التي يسعى أعداؤها إلى إبعادها عن لغتها العربية واستبدالها بلهجات عامية هجينة لتقطيع أواصر وحدتها، التي تتحقق أولًا باللغة العربية التي إذا تحدث بها المرء أو كتب على شواطئ طنجة فهم ما يقوله أو يكتبه من هو على شواطئ الخليج وما بينهم، في حين إذا تحدث بلهجته العامية بالكاد يفهمه أبناء قطره. لذلك فإن التمسك باللغة العربية هو تمسك بالوحدة الوطنية للشعب الواحد، وتمسك بالوحدة القومية في إطار الأمة كلها بكل أديانها، يتساوى في ذلك المسلم والمسيحي، وبكل مذاهبها ومدارسها الفكرية. وفي هذا المجال، نستذكر دور الأديرة المسيحية في لبنان بالتحديد في الحفاظ على اللغة العربية، في إطار دفاع هذه الأديرة عن سيادة واستقلال أمتها ووطنها.

وفي إطار حديثنا عن البعد الوحدوي للغة، نستذكر أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، لكنها نظام اجتماعي متكامل يربط أبناءها باعتبارها أداة للتنشئة والتربية للفرد ونمط شخصيته وأسلوبه بالتفكير، كما أنها وسيلة تنمية للعادات والسلوك الاجتماعي لأفراد المجتمع، كما أنها من أهم مكونات الذوق العام للمجتمع، خاصةً على صعيد بناء الذائقة الفنية للأعمال الإبداعية، وهو ما انتبه اليه المستعمر كرومر عندما دعا في كتابه **مصر الحديثة** إلى جعل دعائم الحضارة المسيحية – وهو هنا يقصد الحضارة الغربية – هي أساس العلاقات بين الناس، لذلك يؤكد الكثيرون من المهتمين أن من أهم أسباب ما يعانيه مجتمعنا من تخلف اجتماعي، وغياب

الذوق العام عن سلوك الكثير من أبناء المجتمع ومن تراجع الذائقة الفنية في مجتمعنا، إنما يعود إلى الابتعاد عن اللغة العربية الفصيحة بسبب نجاح مخطط كرومر، في خلخلة النظام الاجتماعي في بلادنا.

وارتباطًا بالحديث عن دور اللغة في بناء النظام الاجتماعي المتكامل لا بد من القول بأن لكل لغة أخلاقها، فاللغة تحمل في مفرداتها دلالات أخلاقية تشكل بمجموعها منظومة أخلاقية كاملة، وهي أبرز ما تكون في اللغة العربية، لذلك كان الخليفة يكتب لولاته قائلًا: "خذ الناس بالعربية فإنها تزيد بالعقل وتثبت المروءة"؛ وذهب الكثيرون من المفكرين إلى "أن من لا يتقن العربية لا يعاني من نقص في ثقافته فقط، إنما يعاني من نقص مهين في رجولته وأخلاقه"، لذلك قالوا:"ليس لعيي ولا لمنقوص البيان بهاء ولو بلغ يافوخه عنان السماء"، وذهب باحثون إلى أن من أسباب حالة الانهيار الأخلاقي الذي تعيشه بلادنا ابتعاد الناس عن لغتنا العربية، لذلك فإن التمسك باللغة العربية هو تمسك بالأخلاق الحميدة للأمة.

وإذا كانت اللغات تشترك بالكثير من الصفات والأدوار التي أشرنا إليها والتي كانت هدفًا للغزو الثقافي، فإن اللغة العربية تتميز عن غيرها من اللغات بقدسيتها وبعالميتها، فهي ليست لغة عرق من الأعراق، لكنها لغة كل مسلم موحد مهما كان عرقه، ذلك أنه لا تجوز صلاة لمسلم أو تلبية أو قراءة **للقرآن الكريم** بغير اللغة العربية، مما أعطاها بعدًا رساليا تميزت به. لذلك، فإن كل المسلمين مأمورون بتعلمها والدفاع عنها لقول رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: "تعلموا العربية وعلموها للناس" ولقول علماء الأمة وفقهائها:"إننا مأمورون –أمر إيجاب أو أمر استحباب– أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسنة المائلة عنه" وقولهم: "إن على الخاصة أن تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون إليه لدينهم وفي تعلم لسان العرب ولغتها".

غير الجانب المعنوي الذي تلعبه اللغة في حياة الأمة، فإن لها دورًا ماديًا، حيث يؤكد علماء الاقتصاد أن اللغة هي القاسم المشترك للتجارة والاتصال، كما أن اللغة عنصر من عناصر الازدهار الاقتصادي، فقد دلت الدراسات على أن متوسط دخل الفرد يتدنى في البلاد التي تتعدد فيها اللغات مقارنة مع البلاد التي يقل فيها هذا التعدد، ففي بريطانيا يزيد معدل دخل الفرد فيها عشرات المرات عن الفلبين بالرغم من تقارب عدد السكان بسبب تعدد اللغات في الفلبين، وكذلك الحال عندما نقارن بين معدل دخل الفرد في اليابان التي يتحدث أهلها بخمس لغات مع أندونيسيا التي يتحدث أهلها 659 لغة، ولذلك قال العلماء:"إن البلاد المجزأة لغويًا بشكل كبير بلاد فقيرة دائمًا". وقد أشرنا في الفقرات السابقة إلى إن الدراسات والبحوث وتجارب الأمم دلت على أن توطين

العلوم والمعارف باللغة الأصلية للبلاد هو من أهم أسباب نهضتها العلمية والصناعية والاقتصادية، خاصة وأن استيعاب الطلبة للمواد العلمية بلغتهم الأصلية يكون أضعاف استيعابهم باللغات الأجنبية.

وعليه، فإن اللغة العربية هي وسيلة من وسائل بناء اقتصاد قومي قوي في بلادنا، كما أنه وسيلة لإحداث عملية تنمية حقيقية من خلال توطين العلوم والمعارف باللغة العربية، ليكون ذلك أساسًا متينًا لنهضة حقيقية بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

نجاحات

لقد أدرك أعداء الأمة كل هذه الأدوار التي تلعبها اللغة العربية في حياة الأمة فشنوا عليها حربًا لا هوادة فيها، وقد حققوا في حربهم هذه الكثير من النجاحات، ففي حياتنا اليومية صار الحديث بغير اللغة العربية أو تطعيم الحديث بمفردات غيرعربية أمرًا شائعًا ومستساغًا، بل صار عند البعض علامة من علامات الرقي الاجتماعي والتمايز الطبقي. وفي الإعلام، حلت اللهجة العامية محل الفصحى في الكثير من وسائل الإعلام، خاصة المرئية والمسموعة. وأكثر من ذلك صار استعمال المفردات غير العربية تطغى على أحاديث وبرامج معظم الإعلاميين العرب وبرامجهم، التي صار جزء كبير منها يحمل أسماء أجنبية تكتب بالحرف اللاتيني، وحلت اللغة الأجنبية محل اللغة العربية في كتابة أسماء الأغاني والمطربين والموسيقيين وهو الأمر الذي بدأ يزحف إلى المسلسلات التلفزيونية، في عدوان سافر ومعلن على اللغة العربية، وفي عملية تهميش صارخة لها، سبقت وسائل إعلام إليها الفنون خاصة المسرح، فقد استخدمت فرقة نجيب الريحاني مبكرًا اللهجة العامية (السوقية) في عروضها الهزلية، ثم حذت حذوها فرقة رمسيس حتى في عروضها المسرحية الجادة. لتسير على هذا الدرب سائر الفرق المسرحية العربيه، حتى صار استخدام اللهجات العامية هو الأصل في المسرح العربي، والفصحى هي الاستثناء، وعلى درب المسرح سارت السينما العربية التي ولدت أصلًا وهي تستخدم العامية. ومن المعلوم أن للفنون دورًا كبيرًا في صياغة الذائقة لكل أبناء المجتمع، بالإضافة إلى دورها في بناء وتحديد شكل ثقافته ومضامينها، وكذلك هو دور الإعلام.

لم تعد اللغة العربية الفصحى مستبعدة من وسائل الإعلام والفن العربي فقط، بل صارت مستبعدة من المحافل الرسمية، فقد صار جل المسؤولين في بلادنا (رؤساءً ووزراءً ونوابًا) يتحدثون، بل ويخطبون في المحافل الرسمية والمؤتمرات الصحفية باللهجات العامية، وصارت الاتفاقيات والمحادثات الرسمية تتم بغير اللغة العربية، والأخطر من ذلك إعطاء الأولوية في التوظيف لمن يتقن اللغة الأجنبية، في عملية دفع وإجبار لشبابنا لتعلم لغة أخرى على حساب اللغة العربية، في عدوان سافر عليها، صرنا جميعًا نشارك به، أو نسكت عنه بالرغم من تعدد ألوانه

ووضوحها كانتشار اللغات الأجنبية أو اللهجات العامية على واجهات المحلات والشركات والمقاهي والمطاعم والإعلانات في جل المدن العربية التي يحسب الواحد منا عندما يزورها ويتجول في شوارعها التي صار جزء منها يحمل أسماءً أجنبيةً تكتب بغير اللغة العربية إنه في بلد غير عربي، لكثرة حضور اللغات الأجنبية وغياب اللغة العربية، حتى في لوائح طعام وشراب وأسعار المطاعم والمقاهي والفنادق والمحال والشركات وخطاباتها ومخاطباتها، وأحاديث العاملين بها مع عملائهم.

لقد زاد الطين بلةً ظهور وسائل الاتصال الحديث، فقد عززت هذه الوسائل من استخدام اللهجات العامية، ومن إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي، خاصة في رسائلنا الهاتفية، حتى صرنا نتبادل التهاني بمناسباتنا الدينية كحلول شهر رمضان والعيدين بالحرف اللاتيني، وظهر ما صار يعرف (بالعربيزي) وهو استعمال الحروف والأرقام اللاتينية، بدلًا من الحروف العربية في كتابتنا، وهو الاستعمال الذي انتشر انتشار النار في الهشيم بين شباب الأمة، في أخطر عملية إقصاء لهم عن لغتهم، وبالتالي عن كل مصادر ثقافتهم وطليعتها القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة. وفي أبشع عملية إقصاء للغة العربية، وانتصار للغزاة الثقافيين الذين أرادوا تدمير ثقافتنا بتدمير لغتنا، فصرنا لهم عونًا في تحقيق أهدافهم خاصة في مجال التعليم، حيث ما زلنا ننفذ سياسة دانلوب في تهميش اللغة العربية ومدرسيها، الذين صار بعضهم يستخدم العامية في حصص اللغة العربية، بينما نعطي العلاوات لمدرسي اللغة الإنجليزية، ونزيد من حصصها على حساب اللغة العربية التي جرى ويجري تقليص عدد حصصها، مع تخلف في كتب تعليمها وأساليب هذا التعليم، في الوقت الذي يجري فيه التوسع في إقامة المدارس الأجنبية، وكذلك مراكز تعليم هذه اللغات التي صارت تزحف على مناهجنا الدراسية في المدارس والجامعات حتى صار بعضها يدرس الأدب العربي بغير اللغة العربية، وصارت كليات الأدب العربي والشريعة في بعضها تستخدم اللغة الإنجليزية في مواقعها الإلكترونية.

كثيرة هي مظاهر تفضيل اللغات الأجنبية على لغتنا العربية وهي المظاهر التي صارت تدفع شرائح متزايدة من أسرنا العربية إلى الإصرار على تعليم أبنائها اللغة الإنجليزية والسعي لتسجيلهم في المدارس التي تعتمد اللغات الأجنبية، خاصة في المراحل الإلزامية من الدراسة، دون أن تعلم هذه الأسر أنها ترتكب جريمة بحق أطفالها عندما تلحقهم بالمدارس التي تعتمد اللغات الأجنبية في تدريسها، ليس لأنها تقطع أطفالها عن كل ما تمثله اللغة الأم من روابط وقيم دينية وأخلاقية واجتماعية، بل لأنها تضرب بعرض الحائط واحدة من أهم النظريات التربوية وأحدثها، وتدير ظهرها لتجارب الأمم الأكثر تطورًا في التربية والتعليم، من ذلك على سبيل المثال أن الولايات المتحدة

الأمريكية وبريطانيا، جربتا تدريس اللغة الأجنبية في مدارسهما خلال عقد الستينيات من القرن الماضي، ثم تراجعتا عن ذلك بعد أن تبين للقائمين على التعليم فيهما خطورة تعليم اللغة الأجنبية في المراحل الأولى من التعليم على النمو اللغوي والعاطفي للطلاب ومثل الولايات المتحدة وبريطانيا تراجعت الفلبين بعد ما يقارب الأربعة عقود من التعليم باللغة الأجنبية.

أما في القارة الأوروبية، فإن تدريس لغة أجنبية في مرحلتي الروضة والابتدائية يعتبر من المحرمات، حتى في ظل الاتحاد الأوروبي حيث اندمجت الدول الأوروبية عمليًا في كل شيء إلا اللغة ولم يستطيع الاتحاد الأوروبي، فعل أي شيء على صعيد الاندماج اللغوي إلا أن يوصي أعضاءه بتعليم لغتين إضافيتين من اللغات الأوروبية التي تزيد عن عشرين لغة، إضافة إلى اللغة الأم للدولة تاركًا لكل دولة من الدول الأعضاء حرية الاختيار لهاتين اللغتين، ومع ذلك لم يُزد الوقت المخصص في دول الاتحاد لتعلم اللغة الأجنبية عن 30 إلى 50 دقيقة أسبوعيًا في المرحلتين الإعدادية والثانوية، بينما ما زالت هذه الدول تمنع تعليم لغة أجنبية في المرحلة الإعدادية بخلاف ما يجري في بلادنا، حيث تتغول اللغة الأجنبية ويزداد عدد الحصص المخصصة لها سنة بعد أخرى، حتى أصبحت بعض المدارس لا تدرس إلا باللغة الأجنبية وفي كل المراحل مما يشكل خطرًا حقيقيًا على أطفالنا وشبابنا وضربًا بالحائط لكل الحقائق والقيم التربوية والتعليمية، حيث تؤكد الدراسات العلمية في مجالات التربية والتعليم ونمو الأطفال العقلي والعاطفي والجسدي إن الفترة المناسبة لتعلم الإنسان للغته الأم تمتد من سن السنتين إلى أن يصل إلى مرحلة البلوغ، ومن ثم فإن مرحلتي الروضة والابتدائية هما أفضل مرحلة عمرية لتعليم الطفل لغته الأم منفردة، وترسيخها في عقله ووجدانه.

وتؤكد الدراسات ومنها دراسة الباحث اللغوي "سكوفل"أن مقولة: "تعليم الطفل لغة ثانية في سن مبكرة كذبة صنعها الإعلام والدعاية، وهي تخالف أبسط قواعد العلم والتجربة، كما أنها كذبة تفتقر إلى أي سند علمي، بل تخالف كل النظريات التربوية والتعليمية، ولذلك يحذر خبراء التربية والتعليم من تعليم الطفل لغة ثانية قبل سن الثالثة عشرة من عمره، لأنها السن التي يكون فيها الدماغ مهيئًا لاكتسابه لغةً ثانيةً بسهولة ولأن البالغين أقدر على تعلم اللغة الثانية، ويحذر هؤلاء الخبراء من تدريس اللغة الأجنبية في مرحلتي الروضة والابتدائية، علمًا بأن اللغة الأجنبية تحمل معها ثقافتها وقيمها وأخلاقها الأجنبية التي تشكل خطرًا على الثقافة والقيم والأخلاق الأصيلة للطفل وأمته.

ويؤيد هذا الرأي كذلك الجدول الزمني البيولوجي لاكتساب اللغة الذي وضعه علماء اللغة أمثال "سنغتلتون" وزميله "وريان"، بالإضافة إلى بحوث علماء الدماغ الذين أكدوا أن هناك مناطق مخصصة للغة يجب برمجتها وإشغالها باللغة الأم للطفل خلال فترة زمنية محددة من عمره، حتى لا يتم الاعتداء عليها من حواسه الأخرى، محذرين من إصابة الطفل بالإعاقات اللغوية مثل ما يعرف (بالدايلكسيا) والتي يصبح معها الطفل عديم القدرة على لفظ بعض الحروف أو يصاب بالتأتأة. إضافة إلى مخاطر ما صار يعرف بالاختناق اللغوي[2].

لقد تجاهلت هذه الشرائح من أبناء أمتنا كل هذه الحقائق العلمية، وظلت أسيرة للمفاهيم التي وضعها "دوغلاسدانلوب" والتي جعلت من تعلم اللغة الإنجليزية على حساب اللغة العربية مقياسًا للتقدم والرقي الاجتماعي زورًا وبهتانًا، في واحدة من أبشع آثار الغزو الثقافي.

ويزيد من خطورة هذا كله أنه ترافق مع السعي المتواصل لإيجاد لغة وسطى بين العامية والفصحى، وإنزال الثقافة العربية إليها لعزلها عن مستوى فصاحة القرآن الكريم ثم فهمه، وفي هذا الإطار تصب جهود إيقاف نشر اللغة العربية في بلاد المسلمين عمومًا، مع ما يرافق ذلك من شن حروب نفسية ضد اللغة العربية من خلال نشر تقارير تزعم أنها في طريقها إلى الزوال ومقولات تحميلها مسؤولية تقصير العلماء والباحثين العرب ظلمًا وبهتانًا.

لكل ما تقدم، فإن أية استراتيجية توضع للنهوض بالثقافة العربية والإسلامية، لا يمكن أن يكتب لها النجاح بدون أن ترتكز إلى استراتيجية للنهوض باللغة العربية إطار هذه الثقافة ومضمونها، وبُعدها الرسالي، وأحد أبرز وأهم وأخطر ميادين مواجهة الغزو الثقافي الذي يستهدف ثقافتنا.

خلاصة القول: إن واقع لغتنا العربية اليوم هو الذي يجسد حقيقة واقعنا السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي فاللغة مرآة أهلها وقد آن أوان تنظيف هذه المرآة مما علق بها.

المراجع

- **لماذ اللغة العربية**، عدنان رضا النحوي.
- **لننهض بلغتنا – مشروع لاستشراف مستقبل اللغة العربية**، مؤسسة منتدى الفكر العربي.

---

[2] **جريدة الرأي الأردنية**، مقال بلال التل، بتاريخ 2013/3/2.

- **اللغة والاقتصاد**، ترجمة أحمد عوض.
- **اللغة العربية في عصر العولمة**، أحمد بن محمد الضبيب.
- **اللغة العربية وهوية الأمة**، مجموعة محاضرات من منشورات مؤسسة عبد الحميد شومان – الأردن.
- وثائق بنك المعلومات في مركز البيرق الأردني للدراسات والمعلومات .
- مجلة **مجمع اللغة العربية الأردني**.
- جريدة **الرأي** الأردنية، العدد الصادر بتاريخ 2013/3/2.
- برنامج الإرشاد الطلابي في مصر.